

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة السجدة مكية

التر ①

﴿لَمْ﴾ على أنها اسم السورة مبتداً خبره.

تَبَوُّهُ الْكُتُبَ لَا رَبِّبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع تنزيل الكتاب بأنه خبر مبتداً محذوف، أو هو مبتداً خبره ﴿لا ريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره ﴿من رب العالمين﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والخصير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجهاته قوله:

أَرِ يَاقُوتَ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ يُنذِرُ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مَن يَذِّبُ مَن فَيْكَ لَمَلَهُمْ يَهْدُونَ ③

﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم هذا مفترى إنكار: لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾، وما فيه من تقدير أنه من الله وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أولاً أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة إنكاراً لقولهم وتحجيباً منه لظهور أمره في عجز بلغاتهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلّة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته.

فإن قلت: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أظلم من الريب، وهو قولهم افتراه! قلت: معنى لا ريب فيه أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله؛ لأن نافي الريب ومميطة معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزاً للبشر

علمت أمس فما عمل غداً وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت<sup>(1)</sup>، فنزلت وعن النبي ﷺ مفاتيح الغيب خمس وتلا هذه الآية<sup>(2)</sup>، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار وعن المنصور أنه أهمله معرفة مدة عمره فرأى في منامه كان خيالاً أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمس أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله تأويلها: أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ إيان مرساها ﴿وينزل الغيث﴾ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوزه به ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أنكر أم أنثى أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدري نفس﴾ برة، أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غداً﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر، فعملت خيرًا ﴿وما تدري نفس﴾ أين تموت وربما أقامت بأرض وضرت أوتادها وقالت: لا أبرحها، وأقبر فيها فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حسنتها به ظنونها وروى أن ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا قال: ملك الموت فقال: كأنه يريني وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال: ملك الموت لسليمان كان نوماً نظري إليه تعجباً منه لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عنك<sup>(3)</sup> وجعل العلم لله والدراية للعبد لما في الدراية من معنى: الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف إن اعلمت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عدهما أبعد، وقرئ بآية أرض وشبه سيبويه تانيث أي بتانيث كل في قولهم كلتهن عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رقيقاً يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر<sup>(4)</sup>.

(1) قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم، ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر والله أعلم، أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوؤه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا، وهم الولد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون =

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة لقمان باب: «إن الله عنده علم الساعة...» (الحديث: 4778).

(3) رواه ابن أبي شيبة 205/13، كتاب: الزهد، باب: كلام سليمان.

(4) نكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في التفسير 79/3.

وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو رده مع جبريل ونلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿ففي يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وهو يوم القيامة، وقرأ ابن أبي عبيدة يعرج على البناء للمفعول.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾.

وقرئ: ﴿يعدون﴾ بالياء والياء ﴿أحسن كل شيء﴾ حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي: يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان، وقرئ خلقه على البذل أي أحسن فقد خلق كل شيء وخلقته على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسنه.

ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾.

سميت الذرية نسلًا لأنها تنسل منه أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل.

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَا لَكُمْ الْأَنْفُسَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾.

﴿وسواه﴾ قومه كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾<sup>(3)</sup>، وبدل بأضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾<sup>(4)</sup> الآية كأنه قال ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفة.

وَأَلْوَا أَوْدَا صَلَّانًا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا لَنِي خَلَقَ جَدِيدًا بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿وقالوا﴾ قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعًا، وقرئ أننا وأنا على الاستفهام وتركه. ﴿ضللنا﴾ صرنا ترابًا وزهينا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿في الأرض﴾ باللفظ فيها من قوله، وأب مضلوه بعين جلية،

ومثله أبعد شيء من الريب وأما قولهم افتراه فيما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ما اتاهم من نذير من قبلك﴾ كقوله: ﴿ما أنذر آبائهم﴾<sup>(1)</sup> وذلك أن قريشًا لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ.

فإن قلت: فإذا لم ياتهم نذير لم تقم عليهم حجة قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول فلا وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته، فنعم لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان<sup>(2)</sup> ﴿لعلهم يهتدون﴾ فيه وجهان أن يكون على الترجي من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتنكر على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

فإن قلت: ما معنى قوله.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْءٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعِجُّ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَالشَّاهِدِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾.

﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ قلت: هو على معنيين أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليًا أي ناصرًا ينصركم ولا شفيعًا يشفع لكم، والثاني: أن الله وليكم التي يتولى مصالحكم وشفيعكم أي: ناصركم على سبيل المجاز لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ فإذا خلنكم لم يبق لكم ولي ولا نصير ﴿الأمر﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مبيرًا ﴿من السماء إلى الأرض﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصًا كما يريد ويرتضيه إلا في مدة متطاولة لقله عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره قليلًا ما تشكرون أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة كما قال: وإن يومًا عند ربك كالف سنة مما تعدون ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر، ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضًا ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة

(1) سورة يس، الآية: 6.

(2) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع، وما نكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقيب بالعقل، وقد مجها السمع فلم يبع بها القلم فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره، وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم، كتابهم إسماعيل =

= وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿ما اتاهم من نذير﴾ يعني: نذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلفظ الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم.

(3) سورة التين، الآية: 4.

(4) سورة الإسراء، الآية: 85.

الموجود المقطوع به في تحقيقه ولا يقدر لترى ما يتناوله كانه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذا ظرف له، يستغيثون بقولهم ﴿ربنا ابصرنا وسمعنا﴾.

فلا يغاثون يعني ابصرنا صدق وعذك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عمياً وصماً فابصرنا وسمعنا ﴿فارجعنا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا.

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لآتينا كل نفس هداها﴾ على طريق الإلجاء والقسر ولكننا بنينا الامر على الاختيار دون الاضطرار فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على اهل العمى دون البصراء الا ترى إلى ما عقبه به من قوله:

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها والمراد بالنسيان خلاف التذكر يعني: أن الانهماك في الشهوات اذهلكم والهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ثم قال: ﴿إننا نسيناكم﴾ على المقابلة أي جازيناكم جزاء نسيانكم وقيل هو، بمعنى: الترتك أي تركتم الفكر في العاقبة فتركتناكم من الرحمة وفي استئناف قوله: ﴿إننا نسيناكم﴾ وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم، والمعنى: فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرأس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخذل في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة<sup>(2)</sup>.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا سجدوا تواضعا لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه وأثنوا عليه حامدين له ﴿وهم لا يستكبرون﴾ كما يفعل من بصر مستكبراً كان لم يسمعها ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾<sup>(3)</sup> إذا يتلى عليهم يخرون للانقياد سجداً ويقولون سبحان ربنا.

نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾.

وقرأ على وابن عباس رضي الله عنهما ضللنا بكسر اللام يقال ضل يضل ويضل وقرأ الحسن رضي الله عنه ضللنا من صل اللحم وأصل إذا أنتن وقيل صرنا من جنس الصلة وهي الأرض.

فإن قلت: بم انتصب الظرف في أئذا اضللنا قلت: بما يدل عليه إنا لفي خلق جديد وهو نبعث أو يجدد خلقنا، لقاء ربهم هو الوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت، وما وراءه فلما ذكر كفرهم بالإنشاء أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالإنشاء وحده إلا ترى كيف خوطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله على ما نكرنا.

قُلْ يَتُوبُ إِلَيْكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾.

والتوفى استيفاء النفس وهي الروح قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس، وقال أخرجوا أنفسكم وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء من قولك توفيت حقي من فلان واستوفيته إذا أخذته وأفياً كاملاً من غير نقصان والتفعل والاستئعال يلتقيان في مواضع منها تقصيته واستقصيته وتعللته واستعجلته، وعن مجاهد رضي الله عنه حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وعن قتادة يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها.

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُرْسَلُونَ كَأَسْبَأَ رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا لَعَلَّنا نَصَلِّحُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾.

﴿ووترى﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ﷺ وفيه وجهان أن يراد به التمني كانه قال وليتك ترى كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها»<sup>(1)</sup> والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي له في لعلهم يهتدون لأنه تجرع منهم الغصص، ومن عداوتهم وضرارهم فجعل الله له تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم وأن تكون لو الامتناعية، قد حذف جوابها وهو لرايت أمراً فظيماً أو لرايت أسوأ حال ترى ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما يقول فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطباً بعينه فكانك قلت إن أكرم وإن أحسن إليه ولو وإذ كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة

(2) قال أحمد: قد تمهد عن مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة، وأما ما يورثه من الكبائر فلا يجب خلوداً، والمسألة سمعية وانلتها من الكتاب والسنة قطعية خلافاً للقدرية.

(3) سورة الإسراء، الآية: 107 - 108.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: النكاح، (الحديث: 4043)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة، (الحديث: 1087)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، (الحديث: 1865)، وأحمد في المسند 2/226. والحاكم في المستدرک، 165/2.

ولا أن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله<sup>(5)</sup> ما أظلمتهم عليه اقروا إن شئتم، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن الحسن رضي الله عنه أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله له ما لا عين رأت ولا أن سمعت.

أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٧﴾

﴿كان مؤمناً﴾ و﴿كان فاسقاً﴾ محمولان على لفظ من و﴿لا يستوون﴾ محمول على المعنى بلبيل قوله تعالى:

أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْأَوْثَىٰ نُزُلًا مِّمَّا كَانُوا يَسْمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَسْكَبُونَ ﴿١٧﴾

﴿أما الذين آمنوا وأما الذين فسقوا﴾ ونحوه قوله تعالى: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك و﴿جنت الماوى﴾ نوع من الجنان قال الله تعالى: و﴿لقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة الماوى﴾ سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تآوى إليها أرواح الشهداء وقيل: هي عن يمين العرش، وقرئ: ﴿جنة الماوى﴾ على التوحيد ﴿نزلاً﴾ عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاماً.

﴿فماواهم النار﴾ أي: ملجؤهم ومنزلهم، ويجوز أن يراد جنة ماواهم النار أي: النار لهم مكان جنة الماوى للمؤمنين كقوله فيشرهم بعذاب اليم.

وَلَنُدَبِّيَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾

﴿العذاب الأدنى﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين وعن مجاهد رضي الله عنهما عذاب القبر و﴿العذاب الأكبر﴾ عذاب الآخرة أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لعلهم

﴿تتجافى﴾ ترتفع وتتحنى ﴿عن المضاجع﴾ عن الفرش ومواضع النوم داعين ربهم عابدين له لأجل خوفهم من سخطه وطعمهم في رحمته وهم المتهجون وعن رسول الله ﷺ في تفسيرها قيام العبد من الليل<sup>(1)</sup> وعن الحسن رضي الله عنه أنه التهجذ، وعن رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانت تتجافى جنوبيهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقم الذي كانوا يحمون الله في البساء والضرء فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانوا يحمون الله في البساء والضرء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس<sup>(2)</sup> وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة<sup>(3)</sup> فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها.

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿ما أخفى لهم﴾ على البناء للمفعول ما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم الثلاثة للمتكلم وهو الله سبحانه وما بمعنى الذي أو بمعنى أي، وقرئ: ﴿من قرة أعين﴾ وقرأت أعين والمعنى لا تعلم النفوس كلهن ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب انخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فحسم أطماع المتمنين<sup>(4)</sup>، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت

(1) أخرجه أحمد في المسند، 237/5، والحاكم في المستدرک 413/2.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک، 363/2.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (الحديث: 1322).

(4) قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وقاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ اغتنم الفرصة في الاسته هاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء، ولا لبيل في ذلك لمعتقدم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمضني الله بفضله منه ورحمة». فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة، فإنه على حسب الأعمال وليس بذاك، فإن المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها، وإما أن تحمل وهو الظاهر والله أعلم. على أن الله تعالى لما وعد المؤمن =

= جنته، ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقاً تعالى وتقدس صارت الأعمال بالوعد، كأنها أسباب موجبات فعملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه والله أعلم. ونكر الزمخشري الحديث المشهور وهو: أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقروا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى ورده إلى المتكلم، وهي من القراءات المستفضية، والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث، وهو أعدت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أن سمعت ليكون لكل راجعاً إلى الله تعالى مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً والله الموفق.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (الحديث: 3244)، ومسلم في كتاب: الجنة، الحديث:

وأطلع على شدتها.

فإن قُلْتَ: ملا قيل إنا منه منتقمون! قُلْتَ: لما جعله  
أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد  
دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله  
بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَحِمْلَتُهُ  
هُدًى لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾.

﴿الكتاب﴾ للجنس والضمير في ﴿لقائه﴾ له ومعناه  
إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب  
ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك  
لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك  
مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ (6)  
ونحو قوله من لقائه قوله: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن  
حكيم عليم﴾ (7) وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه  
منشوراً﴾ (8) وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه  
السلام ﴿هدى﴾ لقومه.

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَتَذَكَّرُ لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا  
يُوقِنُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿وجعلنا منهم آية يهدون﴾ الناس ويدعونهم إلى ما  
في التوراة من دين الله وشرائعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات  
وذلك لنجعل الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً ولنجعل من  
أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من  
نصرة الدين، وثبتوا عليه من اليقين وقيل: من لقاك موسى  
عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء  
موسى عليه السلام الكتاب أي: من تلقيه له بالرضا  
والقبول، وقرئ: ﴿لما صبروا﴾ ولما صبروا أي: لصبرهم  
وعن الحسن رضي الله عنه صبروا عن الدنيا، وقيل: إنما  
جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما  
فيها ولد إسماعيل عليه السلام.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ  
﴿٢٤﴾.

﴿يفصل بينهم﴾ يقضي فيميز المحق في دينه من  
المبطل، الواو في:

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

يرجعون﴾ أي: يتوبون عن الكفر أو لعلمهم يريون الرجوع  
ويطلبونه كقوله تعالى: ﴿فارجعنا تعمل صالحاً﴾ (1) وسميت  
إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله  
تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ (2) ويدل عليه قراءة من قرأ  
يرجعون على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل  
من الله إرادة وإذا أراد الله شيئاً كان، ولم يمتنع وتوبتهم  
مما لا يكون الا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا  
ذائقين العذاب الأكبر قُلْتَ: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال  
عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع للاقتدار،  
وخلوص الداعي وأما أفعال عباده فيما أن يريداه وهم  
مختارون لها أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه فإن أرادها  
وقد قسرها عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن  
يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في  
اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبيدك  
طاعتك، وهو لا يختارها؛ لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك وإذا  
لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك (3) ودوى  
في نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه  
والوليد ابن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له  
الوليد: اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شياً وأجلد منك  
جلداً وأزرب منك لساناً وأحد منك سنناً وأشجع منك جنناً  
وأملأ منك حشواً في الكتيبة فقال له علي رضي الله عنه:  
اسكت فإنك فاسق (4) فنزلت عامة للمؤمنين والفاسقين  
فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما، وعن الحسن بن  
علي رضي الله عنهما، أنه قال للوليد كيف تشتم علياً وقد  
سماه الله مؤمناً في عشر آيات وسمك فاسقاً (5).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ  
مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٥﴾.

ثم في قوله ﴿ثم أعرض عنها﴾ للاستبعاد والمعنى: إن  
الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها  
وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد  
التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك  
وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركة  
الانتهاز ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغمء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها  
استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقظها

(5) قال أحمد: نكر للسبب المحقق لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا

الذين كفروا؛ لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أرج فيه  
المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق  
الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسة ولقد اتسع الخرق  
على الراقع.

(6) سورة يونس، الآية: 94.

(7) سورة النمل، الآية: 6.

(8) سورة الإسراء، الآية: 13.

(1) سورة السجدة، الآية: 12.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

(3) قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرع على الإشراك الجلي لا  
على الإشراك الخفي، فاعتصم بليل الوجدانية على ربه واجتنابه  
من أصله والله المستعان، وإنما جره في تفسير لعل إلى الإرادة  
والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله  
تعالى، كذا فسرها سيويه فيما تقدم والله أعلم.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص: 198.

سَكَبِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٣﴾.

**فإن قُلْتَ:** فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر! قُلْتُ: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٦٤﴾.

**«وانتظر»** النصره عليهم وهلاكهم **«إنهم منتظرون»** الغلبة عليكم وهلاككم كقوله تعالى: **«فتربصوا إنا معكم متربصون»** (2) وقرأ ابن السميع رحمه الله منتظرون بفتح الظاء ومعناه وانتظر هلاكهم، فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم يعني: أنهم هالكون لا محالة أو وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه. عن رسول الله ﷺ: من قرأ آية من آيات القرآن تنزل وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الأجر كما أحب ليلة القدر (3) وقال: من قرأ آية من آيات القرآن تنزل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام (4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة الأحزاب مدنية

عن زر قال: قال لي أبي بن كعب رضي الله عنه: كم تعدون سورة الأحزاب قلت: ثلاثاً وسبعين آية قال: فوالذي يحلف به أبي بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة (5)، أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أراد أبي رضي الله عنه أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن، وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فالكتمها الداجن فمن تاليفات الملاحدة والروافض (6) جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾.

**«يا أيها النبي اتق الله»** يا أيها النبي لم تحرم، يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفاً وربياً ومحله وتتويهاً بفضله.

**فإن قُلْتَ:** إن لم يوقع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار في قوله محمد رسول الله وما محمد إلا رسول.

**«أولم يهد»** للمعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف والضمير في **«لهم»** لاهل مكة، وقرئ بالنون والياء والفاعل ما دل عليه **«كم أهلكننا»** لأن كم لا تقع فاعلة لا يقال: جاءني كم رجل تقديره أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون أو هذا الكلام كما هو بمضمونه، ومعناه كقولك يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون **«القرون»** عاد وثمود وقوم لوط **«يمشون في مسابغهم»** يعني: أهل مكة يمشون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم وقرئ يمشون بالتشديد.

أَرْزَمَ بَرَوًّا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾.

**«الجرز»** الأرض التي جزر نباتها أي: قطع إما لعدم الماء، وإما لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تثبت كالسباح جزر ويبدل عليه قوله.

**«فنخرج به زرعاً»**، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنها أرض اليمن وعن مجاهد رضي الله عنه: هي آيين، به بالماء **«تأكل»** من الزرع **«أنعامهم»** من عصفه **«وأنفسهم»** من حبه وقرئ يأكل بالياء.

وَيُفْلِرُونَ مِمَّا هَذَا آفَتَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾.

الفتح النصر أو الفصل بالحكومة من قوله: **«ربنا افتح بيننا»** (1) وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا **«ممتى هذا الفتح»** أي في أي وقت يكون **«إن كنتم صانقين»** في إنه كائن.

قَدْ يَوْمَ آفَتِهِمْ لَا يَفْعُ اللَّيْلِينَ كَفَرُوا بِإِنَّهُمْ وَلَا هُمْ يُبْظَرُونَ ﴿٦٩﴾.

**«يوم الفتح»** يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم، وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن رضي الله عنهما يوم فتح مكة.

**فإن قُلْتَ:** قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم؟ قُلْتُ: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجاباً منهم على وجه التكنيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكاني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وأمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتهم في إدراك العذاب فلم تنظروا.

(1) سورة يوسف، الآية: 89.

(2) سورة التوبة، الآية: 52.

(3) ذكره الثعلبي وابن مروييه، ونكره الواحدي في التفسير، الزيلعي

88/3

(4) قال الزيلعي غريب جداً، الزيلعي 89/3.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرک 415/2، وابن حبان في كتاب:

الحدود، باب: الزنى وحده (حديث: 4428).

(6) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب: الرضاع (الحديث: 22)، 4/

179.